

مفهوم الاستشراق عند أدوارد سعيد وأثره في (النقد الثقافي)

أ.د. سمير الخليل / كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

إن تجربة كبيرة لها أصداء عالمية ومثيرة للجدل كتجربة سعيد مع الاستشراق ، من المؤكد أن تكون موضوعاً لكثير من النقاشات والدراسات النقدية والمقالات الثقافية ، فتجربة سعيد هزت أركان وأسس المعرفة الغربية سواء تجاه الذات أو الآخر الحضاري. ولهذا فقد كانت تجربة سعيد بين المناصر والمؤيد وبين المعارض والناقد لها .

إن أغلب الأعمال التي قدمها إدوارد سعيد والتي عالج فيها موضوعات تدور حول الاستشراق ومتعلقاته المعرفية والثقافية كـ (الاستشراق ، والثقافة والإمبريالية ، والعالم والنص والناقد ، وتغطية الإسلام) تعدّ أعمالاً مهمة ومركزية في تأسيس ونشر رؤية نقدية حديثة تقول بأثر العوامل الخارجية على (النص) كالثقافة ، والنزوع النفسية ، والتوجهات السياسية ، وحتى الأحداث الطارئة على الساحة الدولية وآثارها وانعكاساتها. "أن الأدب في وضعه الإبداعي (شعر ، قصة ، رواية ، مسرحية ، الخ) تجربة فردية من حيث الشكل والمظهر ، ولكنها تجربة جماعية في العمق ، لأن الفرح والمعاناة والحياة بصفة عامة لا يأتين إلا داخل هذا الإطار الإنساني الذي تميزه العلاقات الإنسانية بما يقودها من معتقدات وطقوس وما ينتج عنها من مشاعر وأفكار"¹.

يبدو أن النقد العنيف الذي ساقه سعيد في كتاب "الاستشراق" قد انصبّ على الخطاب الاستشراقي لكونه قد مارس عملية خطيرة في تحويل "الشرق" من كينونة تاريخية وثقافية إلى مجرد "ظاهرة نصية" ، وذلك لأن قيمة أي تقرير عن الشرق ، كما يكتب إدوارد سعيد ، لا تتأتى من "الشرق" ذاته ، بل على العكس ، أي من خلال إقصاء "الشرق" ، الوجود الحقيقي ، وإزاحته إلى شئ نافل ولا وجود له إلا في نصوص غرانبية تؤسس لتمثيلات هذا الشرق في المتخيل الغربي الذي يعتمد في عملية التمثيل (تعديل) على مؤسسات وتقاليد وأعراف ونظم وترميز للفهم متفقّ عليها من أجل تحقيق غايات حضارية وثقافية وسياسية محددة . وبما أننا في زماننا المعاصر نشهد تطوراً متسارعاً للعلاقات بين الشرق ، خصوصاً الشرق العربي والإسلامي ، وبين الغرب بصورة عامة ، خصوصاً بعد تطور الاتصالات والمواصلات ، وتحكم هذه العلاقات الكثير من التقاليد والنظم الثقافية والسياسية ، كان للاستشراق وأصدائه على كل من الطرفين أثره وتجلياته .

لهذا ولأسباب عديدة أخرى تعدّ كتابات سعيد (الاستشراق ، والثقافة والإمبريالية ، وتغطية الإسلام) قد صدرت في مرحلتين مهمتين من تاريخ تلك العلاقات . مرحلتان لهما سمات الهيمنة الغربية على المستوى السياسي والثقافي وحتى الاقتصادي ، فترة نهايات السبعينيات ومطلع الثمانينيات التي شهدت التحولات السياسية الكبيرة وخصوصاً بعد ما رسخت أسرائيل دورها ومكانتها

المؤتمر العلمي الدولي السادس لكلية التربية / جامعة واسط

السياسية والعسكرية بين ظهراي العالمين العربي والإسلامي ، ودور الغرب في دعمها ، وفترة التسعينيات ومجيء الولايات المتحدة الأميركية بأساطيلها العسكرية في المنطقة واعتمادها لسياسات جديدة ولخطاب جديد يحمل شعارات الديمقراطية ونشر الحريات ، ومكافحة الإرهاب ... وخطاب كخطاب إدوارد سعيد النقدي الذي نشهده في أعماله المذكورة ، كان فعلاً خطاب المرحلة ، وما هو إلا شكل من تشكيلات المقاومة ، وصحوة وصرخة ثقافية ، إن صح التعبير ، ظهرت وخرجت داخل أقتية النظام الأكاديمي والثقافي لأكبر إمبراطورية غربية مؤثرة في الزمن المعاصر . حتى تردد صدى تلك الصرخة واصلت إلى جميع أصقاع العالم تقريباً ، حيث أنتجت رؤى جديدة للعالم ، رؤى أعادت النظر في النصوص التاريخية والثقافية ومجمل المسلمات المعرفية ، التي رسمت طبيعة العلاقات بين الغرب والآخرين ، بل أعادت النظر حتى على مستوى النظر إلى الذات في الوعي الغربي أو الشرقي على حدٍ سواء.

كانت أعمال إدوارد سعيد وخصوصاً تلك المتعلقة بنقد الاستشراق* ، نقلة أبستمولوجية نوعية في مجال الثقافة الإنسانية العامة ، وساهمت بشكل كبير وفاعل في تأسيس وتدعيم الأطر العامة لرؤية نقدية باتت تسمى (النقد الثقافي) .

خطا هذا النقد خطواته الأولى في الغرب ، خصوصاً في الجامعات الأكاديمية الأميركية ، إذ أفاد من نظريات معرفية عديدة في مقدمتها نظرية الأدب والماركسية ، والنظرية الإجتماعية ... كما يوضح ذلك الناقد (آرثر أيزابرجر) في كتابه "النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية" صدر 1995 م وعرض لهذا النقد². وبما أن أصول أو السند المعرفي لهذا النقد يرجع إلى البنيوية والماركسية ، فهو يُعتبر حدثاً ثقافياً سياسياً في الآن نفسه³.

(والنقد الثقافي) في العالم العربي ، مفاهيم متعددة ولكنها متقاربة إلى حدٍ بعيد في محصلاتها النهائية ، فمنهم من يُسميه بـ"النقد الحضاري" كما فعل هشام شرابي الكاتب الفلسطيني . ولنأخذ بالمفهوم الذي يقول به الناقد السعودي عبد الله الغدامي ، الذي يُعتبر أحد رواد هذا النقد في العالم العربي ، ومن الداعين له بشده ، إذ يقول "إن النقد الثقافي فرع من فروع النقد النصوي العام ، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول (الأسنوية) معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي ، بكل تجلياته وأنماطه وصيغته ، ما هو غير رسمي وغير مؤسستي ، وما هو كذلك سواء بسواء ، من حيث دور كل منهما في حساب المستهلك الثقافي الجمعي . وهو لذا معني بكشف لا الجمالي ، كما هو شأن النقد الأدبي ، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي - الجمالي"⁴ ، أي أنه يتجاوز المعاني الظاهرية والجمالية للنصوص ، والذهاب إلى ما يخفيه النص من دلالات تتعلق بالتاريخ والثقافة والمجتمع ، والإنشغالات السياسية وغيرها ، وكذلك يتناول خلفيات منتجي هذه النصوص الثقافية والسياسية ، وحتى تتبع ميولهم ونزعاتهم النفسية.

إن التحرر من هيمنة اللغوي ، بمفهومه البلاغي – الجمالي الضيق ، هو تحرر من النسق وإكراهاته والحدّ من سلطته ذات الهيمنة المتحكمة في الناقد ، التي توجه ذوقه وأحكامه ومقارباته . فالنقد الثقافي يحول (القارئ – الناقد) من مجرد صنائع ثقافية تتحكم فيها الأنساق المغلقة وتوجه حركتها ، إلى عناصر فاعلة ومنتجة وفاحصة لكل نص وفق انضباطات منهجية صارمة ، ولا يمكن تحقيق هذا دون الانتباه إلى ما يسميه الغدامي بـ"المؤلف المزدوج" ، والازدواج يكون بين المؤلف المعهود (الكاتب) ، والمؤلف الآخر ، وهو الأخطر ، أي الثقافة ذاتها ، أو ما يسمى بـ"المؤلف المضمر" وهو المؤلف النسقي وفق نظرية النقد الثقافي ، فهو حاضر في لا وعي المؤلف المعهود ، يمارس كل أشكال التحكم والهيمنة والتوجيه⁵.

يقوم هذا النوع من النقد بربط الأدب مع باقي العلوم الإنسانية ، كالتاريخ ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، والفلسفة ، وغيرها من العلوم التي تجد لها حضوراً واضحاً في النتاجات الأدبية خصوصاً كالتى نشهداها في الروايات وأدب الرحلات مثلاً . لذا فهذا النقد ، ليؤدي دوره في معالجة النصوص ، نجده يحتاج إلى أكثر من منهج وأكثر من نظرية.

يضيف الغدامي " أن النقد الأدبي التزم بالنظر إلى النص الأدبي بوصفه قيمة جمالية يجري دائماً السعي لكشف هذا البعد الجمالي ، مما جعل "الجمال" منتجاً بلاغياً محتكراً ، وصار للجمالي شرط مؤسساتي ، يصنعه السيد الشاعر ويقوم الفعل النقدي بعمليات التسويق والتعميم . وهذا الالتزام المبدي حرم النقد من القدرة على معرفة عيوب الخطاب ، ومن ملاحظة الأعياب المؤسسة الثقافية وحيلها في خلق حالة من التدجين والترويض العقلي والذوقي لدى مستهلكي الثقافة وما يسمى بالفنون الراقية والأدب الرفيع"⁶ . ويرى الغدامي أن الأغنية الشبابية أو اللغة الإعلامية بما فيها الصحافة والسينما والبرامج التلفزيونية ، باتت مؤثرة في المجتمع وثقافته أكثر من قصيدة يكتبها أو يقولها أدونيس أو غيره من الشعراء ، بذل النقد جهده فيه ، غافلاً عن الخطابات الفاعلة لمجرد أنها ليست مما يحسب في حساب "الراقي" ، كما تقرره المؤسسة الأدبية وشروطها الجمالية⁷.

النقد الثقافي يميز ويفرق بين جمالية النصوص وقيمتها الأدبية ، وبين خلفيات تلك النصوص الثقافية التي تؤثر في قيمتها الإنسانية ، أو قيمة كاتبها ، أي عدم إهمال دور الكاتب ، وهو بذلك يُسَخِّف مقولة "النصية" أو مقولة "موت المؤلف" ويعمل بضدية كاملة معها (من هذا الجانب).

فكما ينقل لنا سعيد "أن مؤرخي الأدب العالميين ، عندما يدرسون على سبيل المثال شاعر القرن السادس عشر "دموند سبنسر" ، فهم لا يربطون بين خطته المتعطشة للدماء (المتعلقة بمصير أيرلندا) ، حيث تصوّر تلك الخطط جيشاً بريطانياً يبدي عملياً السكان الأصليين ، وبين إنجازاته الشعرية العظيمة ، أو تاريخ الحكم البريطاني لإيرلندا"⁸ . ونستطيع أن نفهم من ذلك أن هولاء النقاد "الأدبيون" لا يعينهم لا من قريب ولا من بعيد ، العلاقة التي تربط شعر سبنسر وبين خطته

"المتعطشه للدماء أو المسوغة لإحتلال إيرلندا"، بل جل ما يعنيه هو الأبعاد الجمالية والبلاغية لنص سبنسر الشعري ، وهذا ما يرفضه سعيد ومنهجيته النقدية.

ويفعل هذا النوع من النقد ، الدور النسوي في العملية الثقافية والنقدية في العالم المعاصر ، فظهرت تيارات نقدية حديثة ضمن هذا الإطار ، منها النقد النسوي ، أو النقد الأنثوي* . وبما إننا بصدد الكلام على النقد الثقافي وتجربة إدوارد سعيد مع الاستشراق الذي أهتم به في أكثر من كتاب له ، يجب الالتفات إلى شئ مهم حاول سعيد أن يبينه في أغلب أعماله ، وهو دور المثقف . فالمثقف عندما يكون ناقداً أو كاتباً أو أكاديمياً أو أنثروبولوجياً ، مستشرقاً كان أو لم يكن ، عليه أن يتحرر من كل مسبقاته الثقافية والمفهومية ليكون موضوعياً في طرحه". فإن إحدى مهمات المثقف هي بذل الجهد لت هشيم الآراء المقولية والمقولات التصغيرية ، التي تُحد كثيراً من الفكر الإنساني والاتصال الفكري"⁹ ، وان انتماء مثقف ما إلى مؤسسات أكاديمية ، أو دينية ، أو نقابية ، لا يعني بذلك أن يتبنى توجهات تلك المؤسسات الفكرية والمفهومية حول المواضيع المهمة في العالم المعاصر ، فسلطة المؤسسات الإجتماعية مثلاً ، أو الحكومية يجب أن لا تحد من حرية المثقف في قول الحقيقة ، ولا يجامل فيها ، خوفاً على أجره منها مثلاً أو على موقعه فيها . بل عليه أن لا يجامل حتى توجهات ورغبات جمهوره الذي ينتظر كتبه أو مقالاته . لهذا يرى سعيد أن دور المثقف ليس سهلاً أبداً ، فهو في أغلب الأحيان بين خيارين ، الأول : أن يكون مستقلاً ، وبذلك يكون حراً أكثر في حركته ومعارضته الثقافية للواقع والقوالب والأنساق الثقافية الرائجة والمدعومة من قبل المؤسسات ذات السلطة والقوة في مجتمع ما ، ولكنه بذلك سيكون منعزلاً نوعاً ما ، وأضعف حالاً في مواجهة تلك المؤسسات ذات القوة والهيمنة . والثاني : أن يكون منحازاً بفكره ونتاجه ، وبذلك يفقد رسالته التي من المفترض أن تكون أمانة علمية وأخلاقية في عنقه¹⁰.

إذ يحمل المثقف أو الناقد في هذا المجال مسؤولية علمية وأخلاقية لتأدية رسالة إنسانية عامة ، وبذل الجهود وحتى التضحيات في سبيل تلك الرسالة ، وعدم الإنحياز للسلطة أو للمؤسسات الإجتماعية أو البيروقراطية المهيمنة أو الأكاديمية تلك الرسالة تتضمن في أعماقها عملية "مقاومة" مقاومة للهيمنة الثقافية والامبريالية والسرديات المكتوبة باللغات المهيمنة كما يُعبّر . ومن جانب آخر يتميز هذا النقد الذي يؤسس له سعيد والذي غالباً ما يسميه (النقد الدنيوي) أو (النقد المدني) (يقصد سعيد من النقد الدنيوي بأن النصوص الأدبية في أكثر أشكالها مادية ، أي منسبكة بالظرف والزمان والمكان والمجتمع ، بأختصار أنها موجودة في العالم الدنيوي. والنقد يجب أن يتناولها من هذا الجانب لا من جانب الرؤى الدينية والماورائية)¹¹ فهو بذلك يعارض بشكل قوي التخصص الجامد للنقد ، بمعنى وتبعاً لسعيد ، أن المشكلة الحقيقية في عجز النقاد عن خلق أي اختلاف في العالم تكمن في فخ التخصص "عبادة الخبرة الاحترافية" ، التي تجعل نشاطهم هامشياً بالنسبة للإهتمامات السياسية في المجتمعات المعاصرة ، إذ أن التعقيد المتزايد وحتى المنهج المحدود للنظرية النقدية المعاصرة أدى بها إلى أن تفقد ما تقوله للمجتمع الذي ظهرت فيه¹² . فالجمود الذي يلف النظرية النقدية التقليدية هو ما

يُعارضه النقد الثقافي بقوة ، لهذا فالنقد ليس علماً ، بل هو فعلٌ له أنشغال سياسي واجتماعي ، وقد يكون مفارقاً أو متناقضاً أحياناً ، ولكن المهم أنه لا يتصلب في يقينيات جامدة¹³.

يعالج النقد الثقافي لا النصوص وحسب بل كذلك الظواهر الثقافية التي تطفو في المجتمعات كالموضوعات والانتاج الاعلامي والسينمائي أو ما يطلق عليه حديثاً بالثقافة البصرية والمسموعة وغيرها ، والنظر في خلفياتها الأيديولوجية وأبعادها على المستويات كافة . فالمراكز البحثية والمؤسسات الثقافية ووسائل الإعلام ومؤسساته وصحافيوه تعدّ في الزمن الراهن تجليات من تجليات الاستشراق الحديث فينبغي على النقد الثقافي أن يرصد ويعالج جميع ما يصدر عن تلك المراكز ، وما تنتجه وسائل الإعلام من سينما وبرامج تلفزيونية ثقافية أو إخبارية بل يعالج أيضاً وبالاهتمام نفسه ما يُنتج في الشرق العربي والاسلامي من كتابات ومقالات ، ونظريات ، وما تنتجه وسائل الإعلام العربية والإسلامية الحديثة ، بل حتى ما تنتجه المؤسسات من المراكز الدينية .

لذا فإننا عندما نقرأ تجربة إدوارد سعيد مع الاستشراق وخصوصاً كتبه من قبيل (الاستشراق ، والثقافة والإمبريالية ، وتغطية الإسلام ، وصور المثقف) ، فإننا بازاء نتاج لم يفضح النتاج الاستشراقي وحسب ، بل ساهم وأسس بجدارة لهذا النوع من النقد الموسوعي ، الذي تحتاج اليه أي ثقافة أو حضارة معاصرة لتتمكن من وضع أسس منهجية ومعرفية تحصن بها ثقافتها وتتسلح بهذه النظرة الثرية والمتنوعة في المجال الثقافي والحضاري ، بل أسهم هذا الخطاب النقدي الثقافي في خلق إمكانات وروى وقراءات جديدة للتاريخ ، ودفع مفكري وأدباء "العالم الثالث" أن يخلقوا آدابهم الخاصة وتواريخهم الخاصة ، أن يصبحوا قراء وناقدين متمرسين للنتاج الغربي سواء أكان نصوصاً أو خطابات ، أو ممارسات ثقافية أو سياسية . لهذا يجب قراءة نتاج إدوارد سعيد وتجربته مع الاستشراق قراءة متأملة للإحاطة بكل إبعادها الفكرية والمعرفية . فما أحوجنا اليوم لمثل هذا النوع من النقد لمعالجة الكثير من الظواهر الأدبية والسياسية والثقافية وحتى الدينية التي تعصف بالعالمين العربي والإسلامي ، كتلك المتعلقة بالإنتاج الأدبي الحداثي وما تخلله من نزعات وجودية وإحادية وأفكار متطرفة وغيرها ، وما نشهده أيضاً من خطابات شوفينية ومذهبية متطرفة تصل أحياناً لإلغاء الآخر الذي يعيش ضمن الدين والوطن الواحد ، وتكفيره عقائدياً أو إغائه سياسياً ، ويصل الأمر أحياناً إلى الحكم بعدم أهليته في الحياة ويجب إلغاء وجوده فيها نهائياً . وكذلك الصراع السياسي والفكري والمعرفي بيننا وبين الصهيونية ومظاهر الإمبريالية الحديثة ، وغزو الثقافة الغربية لمجتمعاتنا عبر مختلف الوسائل ، وأثر ذلك على طبيعة العلاقات وتشكلاتها بين العالمين العربي والإسلامي وبين الغرب ، ولا سيما بعد أحداث 11 أيلول وما أعقبها من تداعيات أعادت إلى الواجهة مظاهر الصراع أو التصادم الفكري والديني بين الغرب والشرق الإسلامي والعربي ، وتنامي ظهور الكتب والمقالات والبرامج التلفزيونية التي بدأت تكرر الثنائيات الضدية الاستشراقية ذاتها التي تتكلم عن شرق وإسلام إرهابيين ، وغرب متحضر ، وحتمية وقوع التصادم بين الحضارات على أثر هذا التفاوت والاختلاف الجوهري بين الثقافات والحضارات الإنسانية كما يدعي صامويل هنتغتون وأمثاله . وعلى كل حال بعد

ما اتضح لنا أثر إدوارد سعيد في بلوره معالم هذا النوع من النقد ، نفترض تجاوزنا لكل ما قلناه في الفقرات السابقة عن هذا النقد وأصوله الغربية والأسهامات السعيدية فيه ، نرى أن النقد الثقافي هو ممارسة معرفية ثقافية تستعين بمناهج متعددة ، أو لنقل لا تأبه كثيراً بمسألة المناهج النقدية التقليدية والحديثة وأطرها المحددة ، لنقد ظاهرة ثقافية أو اجتماعية أو سياسية أو نصاً أدبياً أو ثقافياً أو فنياً أياً كان نوعه . فحين يسعى المرء إلى نقد كتاب ككتاب (الاستشراق) العصي عن التصنيف ، أو نقد مقالة صحيفة تتناول مسألة ثقافية أو سياسية معاصرة ، فماذا نسمي هذا النقد ؟ من المؤكد أن لا نسميه نقداً أدبياً ، مثل هذه التسمية أو الوصف لا يطابق هذا النوع من النقد . إذاً فمقدمات النقد الثقافي سبق وأن مورست كثيراً في الحياة الثقافية والاجتماعية وسمّاهما بعضهم الدراسات الثقافية حتى قبل أن يظهر هذا المصطلح (النقد الثقافي) سواء في الغرب أو الشرق ، ولكن للغرب الأسبقية في تشخيصه وإعطائه هذه التسمية ، وفي توضيح بعض سماته المعرفية والمنهجية .

النقد الحضاري (الديني) أو (المدني) :

عُرف عن دوارد سعيد الانفعال عندما يرد على نقاده ، وأحياناً يطلق الشتائم اللا أكاديمية كما يروي لنا برنارد لويس¹⁴ ، ونحن هنا لسنا بصدد التبرير لشتائم سعيد ، ولكن في الوقت نفسه قد يكون الرجل معذوراً لما يجده أحياناً من سوء فهم لما يكتب . فعندما يطالع المرء مجمل أو بعض الانتقادات التي وجهت إليه ، فإنه يجد دون أدنى شك سيلاً من الانتقادات تثير الدهشة والاستغراب . فلو نظرنا للنقد الذي وجهه البعض لسعيد فيما يخص نقده الثقافي أو ما بعد الكولونيالي ، الذي يحرص سعيد على العامل الديني فيه وسمّى هذا النقد أحياناً "النقد الديني" ، والذي عالج به الكثير من الروايات والسرديات الاستشراقية الغربية . لنأخذ على سبيل المثال ، النقد الذي وجهه الكاتب المغربي إسماعيل العثماني ، في مقالته المنشورة على الشبكة العنكبوتية "إدوارد سعيد" بين النقد الديني والنقد العلماني" ، فالرجل وبحسن نية بالتأكيد ، ينتقد سعيد ، وسمّى نقده "العلماني" وبسوء فهم كبير لما قصده سعيد ، راح الرجل ينتقد هذا الأمر ويعده اقصاءً للرؤيا الدينية من الممارسة النقدية ، وإن على الناقد أن لا ينفصل عن مزاجه الروحاني ونسبه الفكري ... الخ¹⁵. ولا نعرف كيف نصنف هذا الكلام وهذه القراءة ، والرجل معذور في حال كان هذا ما فهمه من سعيد ومن نقده الديني . وبحسب فهمنا ، ابتداءً ، فإدوارد سعيد لم يسم هذا النقد بـ"العلماني" أبداً ، بل "النقد الديني" . وكان قصده منه وباختصار شديد هو التالي : يرى سعيد "أن النصوص دنيوية ، وهي أحداث إلى حد ما ، وهي فوق كل ذلك قسط من العالم الاجتماعي والحياة البشرية ، وقسط بالتأكيد من اللحظات التاريخية التي احتلت مكانها فيها وفسرتها ، حتى حين يبدو عليها التكرار لذلك كله"¹⁶، أي أنها أحداث تحدث في زمنٍ ومكانٍ دنيويين ، في لحظات معينة وظرفية من التاريخ ، وهي جزء من

نشاط المجتمع البشري ، احتلت مكاناً ما في التاريخ ووصفت احداثاً وفسرتها بطريقة بينته أو خفية في بنياتها السردية . وإنها (أي النصوص) لها طرق في الوجود بحيث أنها في أسنى شكل لها تبقى دائماً فريسة الوقوع في شرك الظرف ، الزمان والمكان _ لذا يرى سعيد ، بما إنها تحدث في الدنيا ، إذاً فهي دنيوية . أي أن أي نص أدبي مثلاً فهو في الغالب مثقلاً بطريقة ما "بمناسبته" ، أي بالوقائع التجريبية التي انبثق عنها ، فكل تفسيرٍ لمعنى ما فيها أحيل الى "سحري وباطني وما الى ذلك ، فتكون النتيجة غالباً الوصول إلى "اللا معنى" وما هو مرفوض عن سعيد . إذ يتساءل سعيد أليس هناك طريقة للصراع مع مشكلات اللغة الأدبية إلا عن طريق بترها عن المشكلات اليومية الدنيوية الأكثر إلحاحاً؟¹⁷ والمعنى الذي يريده سعيد أن النصوص هي انفعالات الكاتب مع المحيط ومع الذات ومع التاريخ والثقافة والسياسة ... الخ من الأمور التي تقع ضمن الحياة الدنيا. فهي بعد كل شيء "دنيوية" لها مشاكلها وانفعالاتها ، فالوصف الذي يصف المرأة أو الطبيعة أو الأحداث الموجوده في الروايات كلها أمور دنيوية. فسعيد ينظر إلى النصوص بمنظور له انشغالاته المتعلقة بالواقع المعيش وتحدياته ، لا بمنظور روحاني قد يساء استخدامه للهروب من إيجاد معاني تنفع الناس في حياتهم . ومن هذا المنطلق يرى سعيد أن على الناقد أن يكون دنيوياً وبالتالي مقاوماً في الوقت نفسه ، بمعنى أن يكون متحرراً من التفسيرات الباطنية الميتافيزيقية التي قد تكون عائقاً أمام نقد بناء نافع في الحياة الدنيوية للمجتمعات ، أو ما يسعى إلى تقديم مقاربات واقعية . ويكون مقاوماً لصنميات مستحدثة قد تكون ضاغطة بشكل ما على أحكام الناقد ، فيكون مقاوماً لكل أشكال الهيمنة والطغيان والظلم ، وهذا نافع أيضاً في نقد ما يمكن أن يتخلل النصوص الدينية من خرافات وأساطير ، قد تكون مسيئة للدين نفسه بكل تأكيد . فسعيد يدعو الناقد للتححرر مما أسماه القرابة والتقرب ، ويعني بالقرابة : هي الثقافة التي ينتمي لها الناقد بالولادة والانتماء القومي والمهني ، ويقصد بالتقرب : هي الطريقة التي يكتسبها الناقد من خلال التقرب من الفئات الاجتماعية السائدة والفئات السياسية والظروف الاقتصادية والتاريخية والميول الشخصية . إذ تنشأ روابط طبيعية وأشكال سلطوية طبيعية – أي ما مضمونه الطاعة والخوف والحب والاحترام وتصارع المؤسسات – فإن صلة التقرب تحيل هذه الروابط شكلاً من أشكال العلاقة الشخصية – كالوعي المهني والزمالة الجامعية والاحترام المهني وهيمنة الثقافة السائدة¹⁸ . عموماً أن مسألة علمانية سعيد ليست بالضرورة أن نفهم منها أنها معادية لكل ما هو ديني ، وبحسب قراءتنا لشخصية إدوارد سعيد ، فإننا لم نجد سعيداً في أي من كتاباته أو مقابلاته ما يشير إلى عداوة أو رفض صريح للدين ، ولكنه بما أنه رجل ليبرالي ، وهذا مرجح كثيراً ، قد يكون يؤمن بالحرية المطلقة للفرد ، كي يكتشف الحقيقة بنفسه ويتعامل معها بحسب فهمه لها ، لا بحسب ما يمليه عليه الآخرون . وعندما تساءلنا عن أصل هذا التوجه عند سعيد (أي اعتماده النقد الدنيوي) ، فوجدنا الجواب عند جيان باتستيتا فيكو الفيلسوف الايطالي ، إذ كان فيكو يميز بين التاريخ الذي سماه "التاريخ الدنيوي" ، وبين "التاريخ المقدس" ، أي ذلك الذي يكتبه اليهود والمسيحيون والذي يفسر الأحداث التاريخية على أسس لاهوتية ميتافيزيقية ، غالباً ما تكون تخيلية لا أساس علمي لها¹⁹ .

هناك سوء فهم آخر ، يتعلق بالاختلاف في فهم معنى مفهوم الاستشراق الذي يتبناه سعيد وبين المفهوم الذي يتبناه منتقدي سعيد ، فسعيد يربط بشكل وبآخر أو يدمج النتاج الاستشراقي الأكاديمي الصرف ، وبين النتاج الأدبي كالرواية الانكليزية على سبيل المثال ، وهذا لا يعيب عمل سعيد أبداً ، إلا من ناحية إهماله الفصل بين أعمال مستشرقين وبين أثر الاستشراق على الرواية الانكليزية مثلاً ، وهذا الأمر استغله لويس وأمثاله ليدعو إلى أن سعيداً قد خلط بين الاستشراق الأكاديمي وبين غيره . في حين أن سعيداً أجمالاً ومن خلال قراءتنا يعتبر أن الكاتب والراوي يأخذ دور المستشرق عندما يعالج موضوعاً ما يتعلق بالشرق . فهو يخلق ويصف شرقه الخاص ، ويعبر عن ما يمثل الشرق بما عرفه وخبره سواء عن طريق مشاهداته الشخصية أو من كتب الرحالة وغيرهم ، كما فعلت الرواية البريطانية جورج إليوت* التي لم تطأ قدماها الشرق أبداً . لهذا فهو يعتبرهم ، حسب ما نفهم ، أن هؤلاء الكتاب والروائيين مستشرقون بكل ما للكلمة من معنى ، أو مستشرقون بالوكالة كما هو حال إليوت. وهذا من الناحية العلمية صحيح إلى حد بعيد.

هوامش البحث :

¹ إدوارد سعيد بين النقد الديني والنقد العلماني ، اسماعيل العثماني ، مجلة فكر ونقده ، تعريب فخري صالح ، الدار البيضاء ، دار النشر المغربية ، العدد 3 ، ديسمبر 1999 : 39.

* يمكن للقارئ الذي يطالع كتب إدوارد سعيد المذكورة أن يلاحظ بأن أغلبها قد تناول الاستشراق أو أحد مظاهره من حين إلى آخر ، فمثلاً كتاب (تغطية الإسلام) يمثل تكملة لكتاب (الاستشراق) و(الثقافة والإمبريالية) ، وركز فيه على نظرة الغرب إلى العالم الإسلامي وكيف تم تغطيته والأحداث التي تقع فيه ، عبر الدراسات الأكاديمية الاستشراقية ، والتغطية الأخبارية والإعلامية.

² ينظر الوعي المحلق ، يحيى بن الوليد ، رؤية للنشر - القاهرة 2010 : 317 . وينظر : النقد الثقافي ، ايزابجر ترجمة وفاء ابراهيم ، المجلس الأعلى للفنون - مصر 2003.

³ ينظر (م ، ن) : 318.

⁴ النقد الثقافي ، عبد الله الغدامي ، المركز الثقافي العربي - بيروت ، ط3 ، 2005 : 83-84.

⁵ ينظر النقد الثقافي مدخلاً للوحدة والتأليف ، نقد الثقافة والنسق ، محمد همام ، دراسة منشورة على الشبكة العنكبوتية ، (الملتقى للإبداع الفكري) ،

=18http\\www.almultaka.net\showMaqal.php?cat=

⁶ النقد الثقافي ، المصدر السابق : 15.

⁷ ينظر المصدر نفسه : 16.

- ⁸ الثقافة والامبريالية ، إدوارد سعيد ، تعريب كمال أبو ديب ، دار الآداب - بيروت ط3 ، 2004 : 78 .
- * هناك من يميز بين النقد النسوي وبين النقد الأنثوي ، فيعتبر أن النقد النسوي الذي يدافع عن حقوق المرأة ودورها في المجتمع من الممكن أن يكتب فيه ويمارسه الرجال المناصرون لقضايا المرأة ، أما النقد الأنثوي فهو نقد يمارس من قبل العنصر الأنثوي فقط ، أي لا يمارس الرجال هذا النوع من النقد .
- ⁹ صور المثقف ، إدوارد سعيد ، تعريب ، غسان غصن ، دار النهار ، بيروت ، 1996 : 13 .
- ¹⁰ ينظر (م ، ن) : 37 .
- ¹¹ ينظر إدوارد سعيد ناقد الاستشراق ، خالد سعيد ، مركز الحضارة للتنمية - بيروت 2011 : 161 .
- ¹² إدوارد سعيد مفارقة الهوية ، بيل أشكروفت وآخرون ، تعريب سهيل نجم ، نينوى للدراسات والنشر - دمشق ، 2002 : 24 .
- ¹³ (م ، ن) : 46 .
- ¹⁴ ينظر الاستشراق بين دعائه ومعارضيه ، محمد أركون وآخرون ، تعريب : هاشم صالح ، دار الساقى - بيروت ، ط 2 : 175 .
- ¹⁵ مقال إدوارد سعيد بين النقد الديني والنقد العلماني ، شبكة النت .
- ¹⁶ النص والعالم والناقد ، إدوارد سعيد ، تعريب عبد الكريم محفوظ ، اتحاد الكتاب العرب - دمشق 2000 : 8 .
- ¹⁷ ينظر (م ، ن) : 41 .
- ¹⁸ ينظر العالم والنص والناقد ، مصدر سابق : 25-30 .
- ¹⁹ ينظر التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس الى توينبي آلبان . ج ، تعريب عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ، ط 1 ، 1969م : 24/2 .
- * ماري آن ، روائية بريطانية ، وجورج اليوت اسم الشهرة .